الخمسة الآيون

« وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ »
« فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا »
« ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ، وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ »

obeikandl.com

(١)

فى هذه الضاحية النائية عن مكة، اختار سيد بنى عبد شمس ، سعيد ابن العاص بن أمية ، أن يقيم فى قصره الهادىء بالظربية ، وسط الحدائق الغناء ، والظلال الوارفة ، والمروج الواسعة المنتشرة الخضراء.

ولم يكن الاختيار وليد التفنن فى النعيم المترف والثراء الطاغى فحسب ، وإنما كان كذلك وليد الهزات العنيفة التى كثيرا ما كانت تجر قبائل العرب وبطونهم إلى نار الحروب المهلكة ، حيث يمتد الصراع الدامى أعواما طوالا ، حتى يأكل الأخضر واليابس . . هـذه الحروب المهلكة التى كان آخرها حرب الفجار ، حيث التحمت قريش وهوازن التحاما شديدا ، وكان لا بد لأشراف العرب أن يشاركوا فيها ، وأن يلقوا بأنفسهم مدافعين عنهـا . . وكان سعيد بن العاص نفسه أحد المقاتلين فى ميدانها ، ومن ورائه أولاده جميعا ، من كبر منهم قاتل معه جنبا إلى جنب ، ومن صغر رمى من خلفه بالنبال . . حتى انجلت المعركة الكبرى عن قتل كثير من الأشراف ، ومنهم أحيحة أكبر أبناء سيد بنى عبد شمس . . ومن ثم كان صدر السيد القرشى مليئا بالغصص والآلام لفقد أحيحة ، ففضل المقام بالظربية إلتماسا للعزلة لعله أن يجد فيها السكينة لنفسه الحزينة الباكية . .

وكان يحلو لعابرى السبيل حينما يروحون ويجيئون ، أن يسلطوا أبصارهم من خلال الأسوار التى أنشأتها الخمائل الكثيفة والأشجار المتشابكة حول القصر الرهيب ، ليروا الجديد فى الترف

بادیا على أبناء السيد القرشى ، وهم يرفلون فى الدمقس والديباج ؛ ويزينون رءوسهم بالريش والأزهار ، وينشرون فى الأرجاء رائحة الطيب والمسك . . وكثيرا ما كان يتساءل الناس عن موعد خروج السيد فى كوكبة الأبناء فى طريقهم إلى البيت الحرام ، لعبادة الآلهة وتقديم القربان . . أو إلى سوق عكاظ ليشاهدوا الجديد من أسباب اللذة والمتعة ، وليسمعوا الجديد من ألوان الشعر والغناء . . فإن هذا المشهد الرهيب بمثابة الأسطورة العجيبة التى يتمثل طيفها أمام الأبصار بين آن وآخر . . لقد كان الناس يرون على رأس سيد بنى عبد شمس عمامته الكبرى ، التى أخذ أهل مكة على أنفسهم ألا يعتموا بلونها إجلالا للسيد وتعظيما . . وما يكاد يطل عليهم الركب الجليل حتى تنطلق الألسنة وتقول : « ذو التاج . . ذو التاج » ، ويسرع الجميع إلى إفساح الطريق ، وإبراز الولاء والتعظيم . .

وبينما « ذو التاج » يتأهب للخروج ذات يوم وسط أبنائه إلى عكاظ ، إذ انتابته قشعريرة ورعدة ، وكاد أن يسقط على الأرض لولا أن تداركه الأبناء فى حزن وإشفاق ، ثم ظلوا به حتى استفاق ، فما كاد يلمح وجوههم بعد إغفاءته حتى أخذ يبكى . . إنه تذكر أحيحة ، وقد كان يلازمه إلى عكاظ لشهود سوقها مع قبائل العرب من قبل . . حيث كان يضعه فى الصدارة من قومه ، ليجعل منه وارث جاهه وسلطانه .

وكأنما أراد القدر أن يعينه على النهوض فى ذلك اليوم ، ليجسم له

معنى الموت على لسان أحد الشعراء الموهوبين ، وليصرخ فى أذنه بأسرار الحياة وحقائقها . . هذه الحياة التى طغت عليها المادة ، فأحالتها لونا حقيرا من المتاع ، يزول بزواله كل شىء . . فما كاد سيد بنى عبد شمس وأولاده ينزلون سوق عكاظ ، ليأخذوا مكانهم بين رؤساء قريش وسادتها ، حتى طغى على الجميع صوت رهيب باهت ، مالبث أن وضح وارتفع ، وإذا الناس يتزاحمون عليه بالمناكب من كل صوب ! ! إنه صوت قس بن ساعدة ، ذلك الشاعر الحكيم الفحل ، الذى جاء إلى السوق على جمله الأحمر ، يلقى على العرب فى نواديهم معنى جديدا لم يتعودوا الاستماع إليه قبل ذلك فى هذه السوق . . ولم يأبهوا لمثله فى دنياهم الهائجة المائجة ، التى لا تعرف غير اللذات والشهوات . .

وأخذ قس يصب نثره وأشعاره من قلبه صبا ، وهو يقول :

ـ أيها الناس . . اجتمعوا ، ثم اسمعوا وعوا ، من عاش مات ومن مات فات . . وكل ماهو آت آت ، يامعشر إياد . . أين ثمود وعاد وأين الآباء والأجداد . . أين المعروف الذى لم يشكر ! ؟ وأين الظلم الذى لم ينكر ؟ ؟ أقسم قس قسما حقا ، إن لله لدينا هو أرضى عنده من دينكم . . ثم أنشد يقول :

فى الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومى نحوها يمضى الأصاغر والأكابر

لا يرجع الماضي ولا يبقى من الباقين غابر
أيقنت أني لا محالة حيث صار القوم صائر

وانتابت سيد بني عبد شمس القشعريرة والرعدة مرة أخرى .. فقد تذكر موت ولده الحبيب ، وتذكر مضيه هو الآخر نحو هذا الموت؟ فما كان له من سبيل لقطع هذه الهواجس والفكر ، إلا أن يأنس إلى بنت الراح ، ليذهب بها عقله بعيداً عن التفكر في الموت .. وما بعده .. فأخذ يعب منها ما استطاع ، حتى أنسته كل شيء ، كما أنست غيره من سادة العرب وأوغادهم على حد سواء.

ويمر يوم عكاظ على عادته ، كما يمر غيره ، ليدعم أسس الجاهلية التي تقوم عليها حياة العرب في مجامعهم .. فلا حياة إلا للذة ، لذة البطن والفرج ، وما دون البطن والفرج .. وكلما مرت الأعوام ، كلما تشكلت اللذة في آفاق شتى ، حتى صارت قربان قريش إلى آلهة قريش ، ورمز التسبيح بحمد اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ..

• • •

ومن خلال تلك الظلمات المدلجة ، التي يتكاثف بعضها فوق بعض بين يوم وآخر ، هز أوتار الوجود لحن ملائكي ، فسمعت قريش صوت محمد ﷺ ، من أعلا الصفا ، يناديها ويدعوها إلى عبادة الله وحده لا شريك له .. ويبين لها معالم الحياة ونهايتها ، ويكشف لها عن مصائرها فيما بعد هذه الحياة .. من عذاب أليم لمن طغى وبغى ، ومن نعيم مقيم لمن آمن وعمل صالحا .. ولكن أنى لهذه القلوب الغليظة

التى ذابت فى الشهوات ذوبان الملح فى الماء، أن تعى وأن تعقل، وأن تدرك فى ظلامها البهيم أن هذه الأصنام لن تغنى عنها من الله شيئا.!؟

واشتد عداء سعيد بن العاص .. حتى لقد كان أعدى قريش لرسول الله ، وأعنفهم فى مهاجمته وحربه . . فلقد كان الرجل يفكر ، كيف أن محمدا وهو فى أعلا الذرى من قريش ، يجاهر بتلكم العقيدة الخطيرة، لإخراج قريش عما كان يعبد آباؤها من قديم ! ؟ وكيف صار يسفه أحلامها ويسب آلهتها ، ويقوض بنيانها . . كى ينهار سلطانها وملكها تحت صخرة دينه الجديد ، الذى لا فضل فيه لأحد على أحد.. إلا بالتقوى . ! ؟

وتدور الأيام . . ومحمد ﷺ يدعو فى منعة من قومه بنى عبد مناف . . وسيد بنى عبد شمس دائب على عداوته وحربه ، ينكل بمن يستمع إلى الدين الجديد أيما تنكيل . . حتى لقد كان سيد بنى شمس يسعى بأولاده جميعا إلى حيث يقعد محمد ﷺ ، وسط حلقات القبائل فى حجر الكعبة ، فيستمعون ، ثم يتهكمون ، ويتوعدون .. ومن ثم ينادون الجلوس بالانفضاض من حوله ، ويؤذون من يحب البقاء فى حضرته من أغمار الناس . .

وتسرى روح خفية إلى بعض هؤلاء الأبناء .. فيتثاقل فى مكانه ، حينما أخذ أبوه ينادى ذات يوم بالانفضاض من حول غريم قريش وعدو آلهتها . . فكان كلما نادى الطاغية كلما ثبت هو فى الأرض !! حتى لم يبق غيره ، وغير محمد ﷺ ، وبعد هنيهة ، قام هو الآخر يجر

رجليه بخطوات متثاقلة .. فلقد رأى الشر يتطاير من وجه أبيه ، فخاف أن يظنه قد صبأ هو الآخر . . !!

ودخل السيد قصره بالظربية ذات مساء ، والتمس أولاده السبعة فوجدهم جميعا .. إلا كبيرهم خالد بن سعيد ، فسألهم عنه فوجموا ، وما تحرك لهم لسان . ! !

(٢)

أخذ الظلام يقبل رويداً رويدا ، ليلف هذا القصر الهـــادىء الجميل — قصر سيد بنى عبد شمس — بحلته الداكنة الرهيبة ، ولينشر الهدوء المهيب من أعماقه ، فيغمر هذه الحدائق والمروج الخضراء ، حاملا معه ريح المسك تهب من داخل أبهائه الفسيحة .. حيث الحلقات الناعمـــة فى أحضان اللذة والخمر والغنـاء .

وانتصف الليل .. وثقلت رأس السيد إيذانا بطلب الراحة والنوم العميق ، فقام يحمل جسده الثقيل على رجليـــه الخائرتين ، وأخذ أبناؤه يعـاونونه على السير إلى مخدعه .. وكم كانت دهشته ألا يرى ابنه الأكبر خالد بن سعيد بين كوكبة الأبناء .

لقد كان خالد متجهما فى أول الليل ، حتى لقد كان إخوته يتعجبون لأمره ، ويتساءلون بينهم عما طغى على كبيرهم من هم ثقيل ، حبب إليه العزلة منذ أيام ، فهو لا يكاد يطيق مجلس خمر ولا غناء ، بل لا يكاد يطيق الجلوس فى حلقة تجمع بينه وبين أبيه !! فكان يستقل فى مكان داخل القصر الـــكبير ، ويتعلل بالتعب حينا ، وبالمرض حينا آخر . !!

وشملت القصر غمرة من السكون العميق . . فلا تكاد تسمع صوتا ولا همسا . . حتى الكلاب ، فإنها قد نامت هى الأخرى على بساط ذلك السكون ، فسكتت عن نباحها الذى كانت ترسله بين آن وآخر ، على إثر نغمة عالية ، أو صوت منكر ينبعث من نشوة مخمور ، أو سكرة سكران . . وكأن كل هذا الهدوء نفسه كان بمثـــابة الطبل فى رأس خالد بن سعيد ، فكان يزيد من أرقه ، فى تلك الليلة ، ويقض مضجعه ويهد أوصاله ، حتى لقد كان يقف خالد كالمجنون يسائل نفسه ، أهو نائم أم يقظان . . بل أهو حى أم ميت ؟! ومن ثم يقنع نفسه . . فيجهدها بالسير بضع خطوات يذرع بها الحجرة جيئة وذهابا ، وهو يحاذر من أن يحس به أحد من إخوته الستة ، المجندلين فى خندق نوم عميق . .

وتمر الساعات بطيئة ثقيلة ، لتغرق خالدا فى بحار هائجـــة من التفكير فى أمر محمد ﷺ ، وعداوة قريش له ، وتأليب أبيه سعيد عليه . . ثم يستبد به التفكير فى أمر هذه الرسالة التى استطاع بها محمد الفرد أن يتحدى بها قريشا جميعها ، وأن يسفه أحلامها ، وأن يعيب آلهتها . . بل إن خالدا ليذكر هذا الكلام الحلو الجميل ، حينما كان ينصت فى إمعان إلى ذلك الرسول الجديد ، حتى من خلال الضوضاء التى يحدثها طغاة مكة وسادتها ، كلما رأوا محمداً ﷺ فى حلقـــة من حلقات العرب حول الكعبة . . هذا الكلام الحلو الجميل ، الذى تفتحت له جوانب نفسه ، فأخذ بمجامع قلبه ، وملك عليه أشتات عقله . . فصيره

أسير الحيرة وأسير الحب معا . . وأخيرا يمتد جسده المكدود فى تلك الليلة على سريره ، ويغمض الكرى أجفانه ، فيجعله من فرط التعب بين النائم واليقظان . . وإذا به يرى نفسه من خلال تلك النازلة الغامرة ، وكأنه واقف على شفير نار لاحدود لها ولا آفاق ، ويرى أباه يدفع به إليها فى قسوة بالغة ، ثم لايلبث أن يسرع إليه رجل مهيب ، فيأخذ بحقويه فلا يقع فيها . . وكان الرجل المهيب هو سيد بنى عبد مناف محمد رسول الله . .

ويقوم خالد من غفوته فزعا مذعوراً ، يهرول فى أرجاء الحجرة وهو يقول : « أحلف بالله إنها لرؤية حق » ، ثم يخرج هائما فى سكون الكون قبل الشروق ، متجها إلى منزل أبى بكر ، فيطرق بابه ويدخل . .

ويراه أبو بكر ، فيهدىء من روعه ، ويسأله الخبر . . فيجيبه بشكوك نفسه وآلامها . . ثم يقص عليه الرؤيا ، فيشرق وجه الصديق ويقول : أريد بك خير . . . هذا رسول الله ﷺ فاتبعه ، فإنك ستتبعه ، وتدخل معه فى الإسلام الذى يحجزك من أن تقع فيها . . وأبوك واقع فيها . .

ويخرج خالد من بيت أبى بكر ، ويتجه فى سرعة إلى بيت رسول الله بأجياد ، فيدخل عليه مطأطىء الرأس ، ويقول :

— يامحمد . . إلى ماتدعو ؟؟

— إلى الله وحده لاشريك له ، وأن محمدا رسول الله ، وخلع ما أنت عليه من عبادة حجر لايسمع ولا يبصر ، ولا يضر ولا ينفع

ولا يدرى من عبده ممن لم يعبده . .

وينتفض خالد انتفاضة يهتز لها جسده كله . . ويقول :

ـــ فإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله . .

* * *

واختفى خالد من الحياة الصاخبة المترفة فى قصر أبيه ، بل ومن حياة مكة كلها . . وعاش فى كنف الرسول فى شعب من شعاب الجبل ، لا يعلم مكانه غير امرأة واحدة ، ورجلان ، وفتى . . خديجة زوج النبى ، وأبو بكر ، وزيد ، وعلى . . وقد كان هؤلاء هم كل المؤمنين برسالة النور فى دنيا الناس جميعا . .

وعلم سيد بنى عبد شمس بالنبأ العظيم ، فكاد أن يفقد رشده . . وصار كالأسد الهائج فى عرينه ، لا يقر له قرار . . ونادى أبناءه فأقبلوا على الفور ، ووقفوا أمامه وجلين خاشعين ، فأمرهم بإحضار أخيهم خالد على الفور . . ولو كان فى برج من أبراج السماء !!

وأمام الشعب المظلم فى بطن الجبل ، حيث تستقر رسالة النور فى أعماق أولئك الأربعة من خلف رسول الله ﷺ ، وقف أبناء سيد بنى شمس ، ومعهم مولاهم رافع ، فى حيرة من أمرهم . . لقد أخذوا يستمعون هم الآخرون إلى رسول الله خارج الشعب ، وقد أخذتهم هيبة الحديث . . فلما سكت الرسول ، أمر الأبناء رافعا أن يتقدم من باب الشعب ، وأن ينادى خالدا ففعل . .

وخرج خالد إليهم بأمر رسول الله ، فأخبروه أن أباه قد صار

من الموت على بعد خطوة . . وأنه يود رؤيته وهو فى الرمق الأخير . . فسار معهم ، حتى إذا ما دخل القصر الرهيب ألفى أباه كالوحش الكاسر يزمجر ، وكأنه فى انتظار فريسة يرد بها جوعته . . فما كاد يراه حتى هجم عليه فى عنف وشدة ، وصار يضربه بمقرعة فى يده ، حتى شج رأسه ، فأخذ دمه يتفجر منه أنهارا . .

وأخذ التعب من سيد بنى عبد شمس كل مأخذ ، فاستسلم إلى حصير على الأرض ، وأخذ يقذف ولده بالسباب قذفا شديدا ، والإبن صابر محتسب ، ثم قال :

ـ اتبعت محمدا ، وأنت ترى خلافه قومه وما جاء به من عيب آلهتهم وعيب من مضى من آبائهم ! ؟

فأجابه خالد وهو يمسح دماءه ، فقال :

ـ قد صدق الله واتبعته . .

وثارت الدماء حارة فى عروق سيد بنى عبد شمس مرة أخرى فأخذ يكيل لولده على مرآى من أبنائه اللكمات واللطمات ، ثم قال :

ـ اذهب بالكع حيث شئت ، فواللات والعزى لأمنعنك القوت . .

ونظر خالد إلى أبيه نظرة ساخرة ، وقال :

ـ إن منعتنى ، فإن الله يرزقنى ما أعيش به !!

ونزلت هذه الكلمات على قلب سيد بنى عبد شمس نزول الصاعقة ، فصاح فى أولاده أن يخرجوه . . ثم قال لهم :

ـ لا يكلمه أحد منكم إلا صنعت به ما صنعت به . .

وعاد خالد إلى رسول الله قرير العين هادىء البال .. فاقد ظن أن أباه لن يتعرض له بسوء بعد ذلك ، نظير أن يحرمه من المال والعيش وقد صار أمر المال والعيش يسيرا على مثل خالد ، بعد أن استقر فى أعماقه نور اليقين ، فباع الحياة المترفة ابتغاء مرضاة الله ورسوله ..

ومضت أشهر ، امتلأ من خلالها صدر السيد القرشى بالحقد على ولده ، فما استطاع أن يتحمل بقاء هذا الولد حيا يثير فى أعماقه معانى الانكسار أمام قريش وسادتها ، فدعا أولاده وموالية ، وطلب إليهم أن يحضروه فى السلاسل ، فأحضروه .. ثم حبسه الشهور الطوال ، فلم يهن ولم يضعف .. ومن ثم أخذ يمنعه الطعام والماء ثلاثا ثلاثا ، فما تألم وما استكان .. عند ذلك أعاده للسجن مرة أخرى ، ولكن خالدا تلمس السبيل للفرار ، ففر حيث اختفى فى بعض نواحى مكة .

واشتد إيذاء المشركين لأصحاب رسول الله والمؤمنين بدعوته ، وقد زاد عددهم واستشرى خطرهم على قريش وآلهتها .. وأذن الرسول لأصحابه بالهجرة إلى الحبشة ، لعلهم أن يجدوا فى هـــذه الأرض النائية نسيما من الحرية والهدوء ، فهاجروا أفواجا أفواجا ، وما كادوا يستقرون فيها شهورا ، حتى بعثت قريش فى طلبهم ، فأعادت الكثير منهم تحت تأثير الخديعة ، فصبت عليهم جام غضبها وشديد بطشها .

وجاءت الهجرة الثانية إلى الحبشة ، فخرج خالد مع بعض أصحاب رســـول الله فى جنح الظلام يصحب زوجه إليها .. وسار معهم رسول الله ساعة يوصيهم ويرشدهم ، ثم ودعهم على بركة الله ..

وعلم سيد بنى عبد شمس بهجرة ولده ، فعبس وجهه ، واضطربت أوصاله ، وشعر بكبريائه تنهار ، وهو « ذو التاج » وصاحب العمامة الكبرى التى أخذ أهل مكة على أنفسهم ألا يعتموا بلونهـــا إجلالا للسيد وتعظيما . . ثم مالبث أن هده المرض ، فلزم داره لايخرج منها إلا تحت الضغط الشديد . . ضغط الظروف التى تفرض على سادة العرب أن يخرجوا لآلهتهم بين حـــين وحين ، ولو كانوا على بساط الموت . .

وما ذا بعد أن رأى السيد القرشى انتصار ولده عليه ، وتحديه له وسخريته منه ، على ملأ القرشيين ! ؟ بل بعد أن رأى بعض أبنائه الآخرين يدافعون عن أخيهم خالد ، ويظهرون أسفهم لفعل أبيه معه ؛ حتى لقد كانت الثورة تستبد بعمرو بن سعيد فى بعض الأحيان ، فيجرى على لسانه سب قريش وآلهة قريش من أجل أخيه . . فلما رأى أبوه منه ذلك ذات مرة أقسم فقال :

ـ لأعتزلن فى مالى ، لا أسمع شتم آبائى ولا عيب آلهتى ، وهو أحب إلى من القيام مع هؤلاء الصباه . .

بل إن سيد بنى عبد شمس ، حينما هدد أبناءه ، حين أظهر بعضهم العطف على خالد ، لم يكن يدرى أن دعوة الله قد أخذت على ولده عمرو كل مأخذ ، وجعلته يهيم برسول الله أشد الهيام ، كما كان يفعل خالد تماما . . إنه رأى الإيمان ينبثق من هذه القلوب المؤمنة ، فيرسل فى ظلام الحياة نورا ساطعا مـــن اليقين والاعتداد والصبر

والجلاد . . فاستقرت فى أعماقه معانى الخلود ، فآمن بدعوة الله وإن كان لايزال يخفى عن أبيه وإخوته أمره . . خوفا على صحة الأب ، وطمعا فى هدايته . . فإنه لو أسلم لأسلم من خلفه بنو عبد شمس جميعا . . بل إن عمروا ليعلم أن أباه يحبه أشد الحب ، وينزله من قلبه مكانا ليس لإخوته جميعا ، حتى لقد كان يقول فيه :

ألا ليت شعرى عنك ياعمرو سائلا
إذا شب واشتدت يداه وسلما
أتترك أمر القوم فيه بلابل
وتكشف غيظا كان فى الصدر موجما

يعلم عمرو كل هذا ، ولكن الرسول قد صار أحب إليه من كل شىء ، من الأب والأم ، والمال والمتاع ، والعشيرة والولد . . فما لبث أن أعلن إسلامه ، وطلق حياة الترف ، ولحق بخالد بأرض الحبشة . . وأرسل من الطريق كتابا إلى أبيه يعلنه بأمره .

وتأخذ سعيد بنى عبد شمس هزة قاتلة ، ويستبد به الحقد على رسول الله أيما استبداد . . فيقول وهو على بساط مرضه الشديد :

ـ لئن رفعنى الله من مرضى هذا ، لايعبد إله ابن أبى كبشة ببطن مكة !!

ويعلم خالد وهو فى مهاجره بأرض الحبشة بقول أبيه ، فيضرع إلى ربه ألا يرفعه من مرضه . .

وينفذ الدعاء الطاهر إلى عنان السماء ، فتفسح له يد القدرة طريقه

القبول . . فيموت سيد بنى عبد شمس مغصوصاً ، ويمضى إلى جهنم خالداً فيها . .

(٣)

مات سيد بنى عبد شمس فبكته قريش أشد البكاء ، فلقد فقدت به أعظم لواء قام لمحاربة محمد ﷺ والذين آمنوا معه . . ولكنها ما لبثت أن رأت عوضها فى ابنه إبان بن سعيد بن العاص ، وقد جلس فى مكان الصدارة من قومه بعد أبيه . . وأخذ يواصل أذاه للمسلمين وتنكيله بهم ، ويبالغ فى القسوة عليهم ، ليكون فى ذلك العبرة الصارخة لمن يتبع سبيلهم . . وكان إبان قد ورث عن أبيه — بجوار ذلك الجاه العظيم — تلك الغصة القاتلة ، التى أودت بحياته حين رأى ولديه خالد بن سعيد وعمرو بن سعيد ، يتحديانه الواحد بعد الآخر ، فيعلنان إسلامهما ويطلقان النعيم والثروة والجاه ، ثم يهاجران إلى أرض الحبشة خالين الوفاض فرارا من الأذى ، وخوفا من الفتنة . . فكان هم السيد الجديد الشاب أن يؤلب من بقى من إخوته على محمد ﷺ والذين آمنوا معه ، وأن ينفث فيهم نار الحقد والبغضاء عليهم .

وتمر الشهور الطوال فلا يرى القرشيون من المسلمين غير الإيمان والثبات . . ومن ثم تتحطم هذه الجهود الهائلة من الأذى والاضطهاد ، على صخرة العقيدة الراسخة فى قلوب المؤمنين . .

وينظر الحكم بن سعيد إلى فعال أخيه إبان من خلال الحرب

المستعـــرة بين عبدة اللات وعباد الله ، فتأخذه الشفقة بأتباع محمد ﷺ ويغمره الإعجاب بصبرهم واحتمالهم ، فيبدأ يفكر فى أمرهم طويلا . . ثم تأخذه العبرة فيضعف عن مقاومة الحنين إلى رسول الله والإقبال على الدين الجديد . . ! !

وفى جنح ليل بهيم ، غادر الحكم ديار بنى عبد شمس ، وأخذ يذرع الطريق مسرعا إلى بيت الرسول الأعظم ، وهو يحرص على ألا يراه أحد من أولئك الرصد الذين بثتهم قريش على قارعة كل سبيل فى مكة ، ليحولوا بين محمد ﷺ وبين العرب . . خاصة بعد أن أذن الرسول لأصحابه بالهجرة إلى المدينة ، فبدأوا يهاجرون فى الخفاء جماعات وأفرادا . . وما أن وصل الدار المهيبة حتى دق بابها بيد مرتعشة ، وقلب واجف خاشع . . .

وانفرج الباب .. وقد أشرق من خلفه وجه رسول الله وهو ينظر إلى الطارق الغريب فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ، ويقول :

ـ ما اسمك ؟ ؟

ويطاطىء الرجل رأسه هيبة وإجلالا ، وهو يجيب رسول الله ويقول بصوت منخفض باهت :

ـ الحكم بن سعيد ! !

ويحس رسول الله بالفرح يملأ قلبه ، وقد رأى الإيمان يشع فى جبين الرجل ، فأخذ يمسح صدره ويربت عليه ، ثم قال :

ـ بل أنت عبدالله . .

ويأخذ الحنين رسول الله وهو ينظر إلى عبدالله فيذكر أخويه خالدا وعمروا فى مهاجرهما ويدعو لهما بالخير . . ومن ثم تنتاب عبدالله قشعريرة الشوق إلى الهجرة فى سبيل الله هو الآخر ، ويتمنى لو أذن له الرسول باللحاق بأخويه ! !

ويحس رسول الله بأمره ،فيأذن له بالهجرة إلى المدينة ، واللحاق بالمهاجرين هناك . . ثم يأمره أن يتولى تعليم أبناء المسلمين القراءة والكتابة ، ويرسل معه كتابا بذلك ..

وتمضى أيام يغادر رسول الله ﷺ بعدها مكة إلى المدينة مع صاحبه الصديق ، بعد أن اطمأن على سلامة أصحابه فى الهجره.. ثم يعكف ﷺ على إقامة صرح الأخوة بين المهاجرين والأنصار،فيقتسم الأنصار أموالهم وديارهم بينهم وبين المهاجرين ، عن طيب خاطر..

وتسرع عجلة الزمان فى دورانها لتمهد للرسول وأصحابه سبيل القوة والاستقرار .. وتمر سنة وبعض سنة ، والمسلمون من خلالها يتحرقون على لظى الشوق إلى قتال قريش ، دون أن يأذن لهم رسول الله . . حتى نزل قوله تعالى : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير » الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز * الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وأتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور »

ومضت بضعة أشهر أخرى.. ونادى رسول الله ﷺ أصحابه للخروج إلى بدر، فاكتمل عدادهم عندها ثلاثمائة وأربعة عشر، لا يملكون إلا السيوف فى القرب وهى عدة المسافر.. فقد كانوا لا يتوقعون حربا ولا شبه حرب، وإنما كانوا يرغبون فى الاستيلاء على عير لأبى سفيان تحمل بضاعة إلى قريش من الشام.. ثم يعودون إلى المدينة بسلام وقد استردوا بعض حقوقهم وأموالهم التى أخرجهم منها طغاة قريش ظلما وعدوانا.. ويشاء الله أن يجعل بدراً ميدانا لأخطر معركة سطرها التاريخ على وجه الأرض، وأن يرسل لعبدة اللات من خلالها أضواء ساطعة على الحقيقة الأبدية، ليعلموا أن وراء الوجود سلطان قاهره وخالقه، يعز من يشاء ولو كانوا حفنة ذليلة، ويذل من يشاء ولو كانوا أهل الأرض جميعا.. وأن العاقبة للمتقين..

ودارت المعركة الرهيبة، وبرز فى صفوف القرشيين الأولى عظماء القبائل، ومن بينهم أبناء سيد بنى عبد شمس الأربعة الذين لم يسلموا بعد، يتوسطهم كبيرهم إبان بن سعيد سيد قومه، وحامل لواء العداوة لرسول الله ﷺ بعد أبيه، وقد دججوا أنفسهم بالحديد فلا ترى إلا عيونهم.. والتحم الفريقان، وذاب المسلمون العزل فى كثرة أعدائهم، وقد فاقت الألف عداً.. ووفرة أسلحتهم وعتادهم وخيلهم، وقد فاقت أعظم عدة لجيش دب بقدمه على أرض الجزيرة من قبل.. وتحكمت كلمة الإيمان فى الميدان الرهيب، فأخذت سيوف المسلمين تحصد رقاب أعدائهم حصدا، تؤازرها

ملائكة السماء يضربون الكافرين فوق الأعناق ويضربون منهم كل بنان..

وينظر أشراف مكة بعضهم إلى بعض ، وقد طوقهم المسلمون من كل جانب ، فلا يستطيعون الفرار من الموت أو الأسر إلا قليلا..

ويتقدم إبان بن العاص وإخوته ليذودوا عن أرواحهم ، فتتناولهم سهام المسلمين من كل مكان دون أن تصيبهم بأذى لاكتسائهم بالحديد ، ويتقدم سيف من سيوف الله إلى العاص بن سعيد ، فيطعنه فى عنقه فيفصل رقبته عن جسده . . فيهيج إخوته من حوله ، فيلقاهم الزبير بن العوام فارس رسول الله ، فيسخر منهم على ملأ قريش ، ثم ينزع سهما من كنانته ، وينظر إلى عبيدة بن سعيد وقد دخل كله فى الحديد لا ترى منه إلا عين واحدة ، ويستغرق فى الضحك لغرابة المنظر . . ثم يمسك بلجام فرسه بيده اليسرى ويقذف بالسهم قاصداً فقأ هذه العين ، وهو يقول : « خذها يا أبا ذات الكرش » فيستقر السهم فيها وينثنى طرفه المدبب عند مؤخرة رأسه من شدة الطعنة ، فيموت عبيدة لساعته . .

وتنجلى المعركة عن هزيمة قريش ، وقتل سادتها . . ويعود إبان ابن سعيد وأخوه سعيد إلى مكة مفجوعين ، وقد امتلأ قلب إبان بالحقد على رسول الله والمسلمين بأضعاف أضعاف ما كان فيه .

وماذا بعد أن رأى السيد الشاب أن الدنيا قد بدأت تسير فى ركاب رسول الإسلام طوعا وكرها . . حتى لقد أذلت له أعناق السادة من قريش حين أرادوا القضاء عليه فى خيلائهم وفخرهم فى ساعة من نهار . . ! !

بل ماذا بعد أن رأى السيد الشاب أن أعظم قوة كانت تتمتع بها دار أبيه سيد بنى عبد شمس لقيادة بنى عبد شمس جميعا ، والعرب من ورائهم .. قد انهارت على صخرة الإسلام ، فأسلم خالد وعمرو والحكم ، وقتل العاص وعبيدة .. وبقى هو وأخوه سعيد للمقادير ..

(٤)

طغى على مكة طوفان من الانكسار ، لم تشهد مثله قط فى موطن من المواطن ، وشملت أبياتهـــا موجات هائلة من الحزن العميق ، أخرجتها عن مألوف عاداتها فى احتمال المصائب والتزود منـــها ، لاسترداد مكانها واعتبارها بين العرب . . فلقد كانت موقعة بدر صدمة كبرى أذهلتها عن كل شىء ، حتى عن الأمل فى بعث الروح التى خارت فى قلوب طغاتها وصناديدها ، فهى لم تكن تتوقع أن ثلاثمائة من المسلمين المطرودين بالأمس ، والمشردين فى الآفاق . . يستطيعون الصمود ساعة من نهار ، أمام ألف من رجالها الأشداء فى عدتهم وسطوتهم . . حتى فاجأها القدر بما لم يـــكن فى حسبانها أبدا . . فإذا القلة العزلاء تصحن الجيش الجرار صحنا ، وتدك أركانه دكا ، وإذا آلهة البشر تتحطم رءوسها تحت أقدام محمد ﷺ ، والذين آمنوا معه . .

وتتجمع المأساة فى ثوبها الداكن ، فتلف دار سيد بنى عبد شمس برداء من الذلة والمسكنة ، وتجعلها كالقبر الموحش يضم بين جوانحه ذكريات مجد أثيل ، وأطلال سلطان عريض . .

ألم تكن هذه الدار من قبل كعبة لسادة قريش ، يتوافدون عليها كلما حز بهم أمر ، أو ألم بهم خطب !؟ وهنالك تتقرر الكلمة النافذة على لسان صاحبها ، ذى التاج ، سعيد بن العاص بن أمية ، صاحب العمامة الكبرى التى أخذ أهل مكة على أنفسهم ألا يعتموا بلونها إجلالا له وتعظيما ؟؟

ألم تكن هذه الدار من قبل مركز القيادة لحرب محمد ، ﷺ ، والمؤمنين برسالته ، حيث يتربع السيد القرشى على عرش الدفاع عن الآلهة الصماء ، ومن ورائه أبناؤه السبعة الأقوياء يتقدمون صفوف بنى عبد شمس ، ويتزعمون الشباب القرشى كله فى حركة التنكيل بالمسلمين ؟؟

ألم تكن هذه الدار فوق ذلك وذلك ، ميدانا للنعيم المترف ، ومنتدى للحلقات الناعمة فى أحضان اللذة والخمر والغناء . . ؟ ؟

فما بالها اليوم صامتة مظلمة ؟؟ وما بال سلطانها اليوم متحطم منهار ؟؟ وما بال أصوات النغم العذب قد حلت محلها أصوات النوائح والثكالى . ؟ ؟

أين السيد العظيم الخطر ؟؟ إنه صار أحدوثة للزمن ، تنطق بأن سلطان الدنيا وإن عظم ، لا يقوى على صد المؤمنين عن منبع النور . . وهكذا عجز ، ذو التاج ، حتى عن صد ولديه خالد وعمرو عن دين الله ، والهجرة إلى الحبشة . . فمات من فرط الكمد مغصوصا ! !

وأين ولى عهده إبان بن سعيد الذى أخذ على نفسه ـ وقد صار

وارث المجد فى بنى عبد شمس - أن يروى غلة أبيه فى لحده ، وأن ينتقم لجاهه العظيم بالتنكيل بأصحاب محمد ﷺ . . وأن يحفظ لهذه الدار هيبتها فى قريش ؟؟ إنه اليوم يجنى ثمرة بطشه هو الآخر مرا وعلقما ، ويتجرع كئوس ظلمه غصصا وآلاما . . فلقد أسلم أخوه الحكم على الرغم من كل شىء ، وهاجر إلى المدينة . . حتى إذا ما كان يوم بدر كان فى عداد جند الله خلف محمد ﷺ ، فأذاق القرشيين وطغاتهم كئوسا مرة من القتل والجراح والأسر . . ثم كان ما كان من قتل أخويه العاص وعبيدة ، وانهيار سلطان بنى عبد شمس مع سلطان قريش كلها . . ذلك الانهيار الذريع ، الذى لن تقوم بعده لدار سيد بنى عبد شمس قائمة أبدا . . فقد أسلم من رجالها السبعة الأقوياء ثلاثة ، وهلك رجلان ، وبقى رجلان للمقادير . . هما إبان نفسه ، وأخوه سعيد !!

* * *

ومن خلال تلك المحنة القاسية لم يستطع إبان أن يبرح داره الحزينة من فرط الخزى والعار . . فلقد تخيل أن الهزيمة الكبرى قد لحقت قريشا حين صار هو حامل لواء العداوة لأعداء اللات والعزى فى قريش بعد أبيه . . بل حين صار يعلن أنه قد نذر حياته للقضاء على دعوة محمد ﷺ ، ومن آمن بها ، شريفا كان أم من الأغمار . .

وتمر الشهور والأعوام . . وتمضى قريش فى حرب رسول الله

ويخرج فى صفوفها إبان وأخوه فى كل ملحمة . . حتى إذا كان يوم الأحزاب ، خرج العرب وأحابيشهم من شتى بقـــاع الجزيرة فى عشرة آلاف مقاتل ، على قلب رجل واحد ، تؤيدهم دولة اليهود فى كل مكان . . فحاصروا المسلمين بالمدينة ـ ولم يزد عددهم عن ثلاثة آلاف ـ ورمـــوهم عن قوس واحدة ، وكالبوهم من كل جانب !! ويشاء الله أن يبعث آية من آياته لنصرة رسوله فى ساعة العسرة ، لتكون درسا لأعدائه من جبابرة الأرض ، عساهم أن يدركوا أن الذى بعثه بالحق بشيرا ونذيرا ، قادر على أن ينصره ولو كان أعداؤه ملء الأرض ، وكان بعضهم لبعض ظهيرا . . فأرسل الريح صرصرا عاتية ، تقتلع خيـــامهم ، وتقلب قدورهم ، وتطفىء نيرانهم وتغشى أبصارهم ، وتملأ بالرعب قلوبهم ، وتنشر بين صفوفهم الفزع والخوف والرهبة . . فيسارعون بالفرار قبل أن يقر لهم قرار ، ويضربون فى البيداء المظلمة بأرجل مسرعة لا يلوون على شىء ، ويعـــودون من حيث أتوا مدحورين مهزومين . . ثم لا يلبث الرسول فور انسحاب الأحزاب أن ينزل النكال بأعدائه يهود بنى قريظة فيما يلى المدينة ، وقد نقضوا عهده بانحيازهم إلى الجيش الجرار ، فيبيدهم من الوجود جزاء وفاقا . . ليكون حديثهم عبرة لمن خلفهم من أعداء الله ورسوله . .

وينتهى القرشيون إلى مكة مطأطئى الرءوس ، لا يكاد أحدهم ينظر إلى صاحبه حتى يتملكه الخزى ، فينتكس رأسه نحو الأرض من جديد . . ويستقر إبان وأخوه سعيد فى دارهما الحزينة فيطيلان

البقاء فيهـــا أياما دون أن يخرجا ! ! فلقد تجسددت أحزانهما فصارا كالأسيرين فى سجن رهيب . .

ويبدأ إبان يفكر فى أمر محمد ﷺ وأصحابه ، وقد استشرى خطرهم وعظم أمرهم . . وينتقل به التفـــكير إلى تذكر إخوته وقد تفرقوا فى سبيل محمد ﷺ فى كل مكان . . ففى الحبشة أخواه خالد وعمرو ، وفى المدينة الحكم أو عبدالله كما يسميه المسلمون . . إنه ليعلم فى هؤلاء الإخوة العقل الراجح والرأى السديد . . فما كانوا ليؤمنوا بمحمد ﷺ لو كان ســـاحرا أو مجنونا أو كذابا ، وما كان يؤمن به غيرهم من سادة العرب لو كان كذلك . . بل إنه قد رأى بعينى رأسه كيف يلتف أصحاب محمد ﷺ حوله التفاف السوار بالمعصم ويفدونه بأرواحهم وأموالهم وأولادهم ، وكل عزيز لديهم . . بل إنه فوق ذلك بدأ يتلقى من إخوته الكتب من مهجرهم ، يناشدونه فيها الله والإسلام ، وخلع رداء الجاهلية ، وترك عبادة الأوثان . . والنجاة بنفسه من خزى الدنيا وعذاب الآخرة . .

وتمضى الأيام والليالى ثقيلة بطيئة ، فتغرقه فى بحار لاساحل لها من الفـــكر والحيرة ، ويطول به القلق والوجوم ، ويستبد به الأرق والسهاد . . فلا يجد مخرجا من ضيقه إلا أن يشغل نفسه بالتجارة والتنقل من بلد إلى بلد فى أرض الله الواسعة فيما بين مكة والشام ! !

* * *

وبينما كان إبان على رأس قافلة فيها عير لقريش ، تحمل تجارة إلى

فلسطين ذات مرة ، إذ أناخ الركب إلى جوار دير منعزل يلتمس الراحة والماء . . وناءت القافلة بجميعها ، وبقى هو أرقا لا يدرى لأرقه سببا ، فأخذ يضرب فى البيداء الهادئة يمينا وشمالا تحت ضوء القمر الباهت ، وظل يستعيد بذاكرته ذلك التاريخ الطويل الذى سطره محمد ﷺ وأصحابه فى تاريخ الدنيـــا ، ويفكر فى أمر هذا السر العجيب الذى صار يجذب إلى ابن عبدالله هذه الخلائق بلا حساب . . حتى إذا ما أخذ منه التعب كل مأخذ ، عاد أدراجه إلى مناخ الإبل فما كاد يصل إليه حتى رأى ضوء فتيل ضئيل يتحرك بين يدى شيخ وقور أمام باب الدير . . ولم يلبث إبان أن عرف فيه راهب هذه البيعة الصغيرة . . فأحب أن يأنس إليه ويجتمع به ، لعله أن يجد عنده شفاء لما يحتل نفسه من وساوس ومخاوف وأشجان . . فإنه كثيرا ما سمع أن هؤلاء الرهبان ليعلمون عن هذه الأمور الشىء الكثير . .

واقترب إبان من الراهب فحياه . . والتمس عنده المجلس قليلا ، فأذن له بالجلوس معه خارج الصومعة . . ثم سأله عن حاجته فقال :

ـ إنى رجل من قريش ، وإن رجلا منا خرج فينـــا يزعم أنه رسول الله ، أرسله مثل ما أرسل موسى وعيسى . .

ـ وارتعـــد الراهب ، وأخذ ينظر فى عمق إلى إبان ، ومالبث أن قال

ـ ما اسم صاحبكم ؟ ؟

فأجابه إبان فى سرعة وقال :

ـ محمـــد .

فانطلق لسان الراهب ، وقد أشرق وجهه ، فقال :

ـ فإنى أصفه لك . .

وظل يعدد صفات النبي صفة صفة ، وإبان يؤمن على قوله حتى إذا ما انتهى الراهب من حديثه ، صاح إبان وقال :

ـ هو والله كذلك . ! !

فقاطعه الراهب ، وقد تجمعت فى وجهه علامات اليقين والرهبة ، وقال :

ـ والله ليظهرن على الأرض .. يابنى ، اقرأ على الرجل الصالح السلام ..

ثم قام وهو يجهش بالبكاء ، وتركه وعاد إلى صومعته ! !

وتملكت إبان عوامل خفية ، لم يدر مصدرها ولم يستطع إزاءها النوم لحظة ، حتى إذا ماجن عليـــه الليل ، نادى فى العير بالرحيل إلى مكة . .

وما أن دخل البلد الحرام ، حتى فوجىء بقدوم المسلمين خلف محمد ﷺ لدخول مكة حاجين عام الحديبية . . وكان ماكان من أمر امتناع قريش عن السماح لهم . . وإرسال رسول الله عثمان بن عفان إلى القرشيين ليفاوضهم فى أمر الدخول ، فما كان من إبان إلا أن أعلن على الملأ جواره وحمايته لعثمان ، وقد كان الملأ يأتمرون به ليقتلوه . ! !

وعجبت قريش من أمر إبان ، وذهلت من مسلكه الغريب . وهو يحمل عثمان على فرسه ، ويقول له :

ـ اسلك من مكة حيث شئت آمنا . ! !

ثم ذهب به إلى الكعبة ليطوف بها، فما كان من عثمان إلا أن امتنع وقال : « ما كنت لأفعل حتى يطوف بها رسول الله ﷺ » ! ومن ثم خرج به وقد أسر إليه أمرا . . وعند مخارج مكة ودعه فى حرارة بعد أن اطمأن عليه من غوائل الطريق للحاق برسول الله . .

وما كاد عثمان يدخل المدينة على رسول الله بين التهليل والتكبير حتى كان إبان من ورائه يذرع الصحراء لحاقا به . . وكم كانت دهشة المسلمين بالمسجد ، حين رأوا فارس بنى عبد شمس بينهم ، يشق طريقه إلى النبى ، ويقبل الأرض بين قدميه ، ويعلن إسلامه لله رب العالمين . .

(٥)

ارتاع القرشيون لإسلام فتى عبد شمس وفارسها ، وهجرته لجاة خلف عثمان بن عفان إلى المدينة ، لحاقا برسول الله ، فور يوم الحديبية . . فلقد كانوا يرون أن إبان بن سعيد آخر من يلقى السلاح ضد المسلمين ، فهو الذى كان بالأمس يتزعم حركة الشباب القرشى للقضاء على الإسلام والفتك بأهله أشد الفتك . . وكم كانوا يرجون وصوله من الشام على رأس قافلتهم ، حينما صبحهم رسول الله ﷺ لدخول مكة معتمرا على رأس ثلاثة آلاف من أصحابه المهاجرين

والأنصار فنعوه . . كما كانوا يرجون وصوله ليروى غلتهم ، وليشفى صدورهم من محمد ﷺ ، والذين آمنوا معه ، حتى فوجئوا بوصوله على غير موعد ، فإذا هو على غير ما عهدوه من قبل . . فلقد أوى إليه رسول محمد ﷺ عثمان بن عفان ، وأمنه من قريش كلها ، ثم أخرجه من مكة سالما ليعود إلى المدينة . . وما لبث أن اختفى هو الآخر ! !

وخيم الأسى على دار سيد بنى عبد شمس ، بعد هجرة فتاها العظيم إبان . . وبقاء أخيه الأصغر سعيد بن سعيد ، يتجرع وحده كئوس الحسرة تحت أثقال هذا المجد العريض الذى انهار على رأسه فجأة . . وجعل من حياته الباكية أحدوثة لقريش ، يضربون بها المثل فى الذل بعد العزة ، وفى الضعف بعد القوة ، وفى القلة بعد الكثرة ، وفى الخراب الموحش بعد النعيم الزاهر فى رحاب الجاه والسلطان .. حتى لقد صار اسم « سعيد » رمزا على الشقاء ، بعد أن كان مبعثا للهيبة والخوف فى حياة السيد الكبير « ذى التاج » صاحب العمامة الكبرى ، التى أخذ أهل مكة على أنفسهم من قبل ألا يعتموا بلونها إجلالا وتعظيما ! !

وحق للأسى أن يخيم ، بعد أن تبدد من الدار الكبيرة ظل ستة إخوة كانوا بجوار سعيد الأصغر ، كالغرة الناصعة فى جبين الشباب القرشى ، فأسلم منهم أربعة لله ، وتركوا مكة فرارا بدينهم فى أقاصى الأرض فيما بين الحبشة والمدينة ، ومات اثنان فى معركة الباطل دفاعا

عن اللات والعزى . . وبقى سعيد وحده ، يحمل أثقال الحياة وآلام الوحدة ، وأحزان الذكريات . .

ومرت الأيام لتؤكد للقرشيين أن عهدهم الظالم مع رسول الإسلام يوم الحديبية ، لن يحد من قوته ، ولن يضعف من شوكته ، ولن يحول بين دعوته وبين قلوب أهل مكة ، رغم الحصار المضروب حول كل بيت ، وحول كل فرد ، ورغم صد المؤمنين برسالة التوحيد عن الهجرة بقوه السيف . . وها هى اليوم تسمع عن قادة شبابها بالأمس أنهم يخترقون الحصار الرهيب واحدا بعد الآخر ، سعيا إلى رسول الله . . بعد أن رأوا إبان بن سعيد نفسه قد آمن برسالة التوحيد ، وسار فى صفوف المسلمين لحرب أعدائهم ، بعد أن كان حربا عليهم . . بل بعد أن سمعوا أن الرسول قد كرمه وقربه ، ووضعه أميرا على رأس سرية من أصحابه إلى نجد ، فأدى المهمة على خير وجه ، وعاد بجند الله منصورا . .

* * *

وخرج رسول الله ﷺ إلى خيبر بأصحابه - وفيهم إبان وعبد الله ابنا سعيد بن العاص - لحرب يهود فى آخر معاركهم وأعظم حصونهم ، وتم له النصر والغلبة ، وأورثه الله أرضهم وديارهم وأموالهم نافلة للمسلمين . . وبينما هو متأهب للعودة إلى المدينة ، إذ فاجأه مهاجرو الحبشة بعودتهم ، بعد أن قضوا فيها زهاء عشرين عاما ، ذاقوا فيها مرارة الغربة وشظف العيش ، ابتغاء مرضاة الله ،

وفيهم خالد وعمرو ابنا سعيد بن العاص .. فكبر المسلمون وهللوا، وقد تزايد فرحهم وتضاعف سرورهم .. وبرزت من خلال تلكم اللحظات العلوية آية من آيات الإيمان بهرت أصحاب محمد ﷺ ، حين رأوا أبناء سيد بنى عبد شمس الأربعة ، يجتمعون بعد طول فراق حول الرسول الأعظم ، معلنين كلمة الوفاء الخالص من قلوب ملؤها الحب يقينا وتسليما .. ولم يلبث المسلمون أن يستمعوا إلى خالد وهو يبكى ويقول :

ـ يارسول الله ، لم نشهد معك بدرا ..

فيجيبه الرسول فى حنان غامر ، فيقول :

ـ ياخالد ، أوما ترضى أن يكون للناس هجرة ، ولكم هجرتان !؟

وعاد الرسول إلى المدينة ، وعاد معه من عاد من أصحابه ، وفيهم أبناء سيد بنى عبد شمس الأربعة .. ولم تمض شهور ، حتى هاجر إليهم سعيد بن سعيد بن العاص هو الآخر ، بعد أن أعيته الحيل مرات ومرات .. فأسلم وجهه لله ورسوله مؤمنا صادقا .. فاكتمل العقد الكريم بين الأخوة الخمسة فى ساحة التوحيد ..

* * *

وأذن الله لرسوله بفتح مكة ، فى عمرة القضاء ، فخرجت كتائب الرحمن كتيبة كتيبة فى أعظم جيش محمدى دب بقدمه على أرض الجزيرة .. وكان أبناء سيد بنى عبد شمس فى الكتيبة الخضراء مع المهاجرين والأنصار ، فى مقدمة الجيش خلف رسول الله ﷺ ..

وجاء نصر الله والفتح . . واستسلم القرشيون وأحنوا رءوسهم ذلة وانكسارا ، وهم يطلبون العفو والأمان لأنفسهم فى ساحة البيت الحرام ، فأمنهم الرسول وعفا عنهم .

وشاء سيد العرب ﷺ أن يكرم أبناء سيد بنى عبد شمس بين أهل مكة ، فاستعمل سعيدا على سوق مكة . . حتى إذا ما خرج ﷺ إلى حنين والطائف لقتال أعداء الله ، أبى الإخوة الخمسة إلا الخروج معه ، فأبلوا أصدق البلاء . . ولما اشتد بأس الكفار فى الطائف بعد حنين ، تقدم أبناء سيد بنى عبد شمس صفوف المسلمين حتى كتب الله لرسوله النصر . . وهناك سطروا الصفحة الأولى من صفحات الفداء ، فخر سعيد فى ميدان الشرف شهيدا . .

ورجع رسول الله إلى المدينة ، فكان أبناء سيد بنى عبد شمس فى ركابه ، وقد أبوا أن يبقوا بعيدا عنه بمكة . .

وشاء ﷺ أن يكرمهم ، فاتخذ خالدا كاتبه وحواريه ، فكتب له كتاب أهل الطائف لوفد ثقيف ، بعد أن مشى بالصلح بينهم وبين رسول الله . . حتى إذا ما سار ﷺ إلى تبوك لحرب الروم ، أبى الإخوة الأربعة إلا أن يخرجوا معه شوقا إلى فدائه . . ولكنهم عادوا معه بعد النصر سالمين . .

ورأى رسول الله أن يضاعف تكريمه لهؤلاء الإخوة الأربعة وقد استعصت عليهم الشهادة حين طلبوها فى كل موطن . . فبعث بابان أميرا على البحرين حينما عزل عنها ﷺ العلاء بن الحضرمى ،

وبعث بخالد أميرا على اليمن ، كما بعث بعمرو أميرا على تيماء وخيبر..
أما عبدالله فقد طلب إلى الرسول الأعظم أن يبقى بجواره فى المدينة يعلم أبناء المسلمين ، فاستبقاه . .

* * *

ونزل قضاء الله بساحة رسوله ،واختار سبحانه إلى جواره خير أصفيائه من خلقه . . فعظم المصاب عـــلى المسلمين ، وتركز الخطب الجلل فى قلوب الإخوة الأربعة، فترك إبان وخالد وعمرو إماراتهم، زهدا فيها بعد رسول الله ، وعادوا إلى المدينة ، فأسرع إليهم الصديق ـ خليفة رسول الله ـ وقال :

ـ مالكم رجعتم ؟؟ ما أحد أحق بالعمل من عمال رسول الله ﷺ.

ولكنهم أبو إلا ترك الإمارة فى جد وإصرار ، وقالوا :

ـ نحن بنو أبى أحيحة ، لانعمل لأحد بعد رسول الله ﷺ.

وعظم المصاب على أبنـــاء سيد بنى عبدشمس ، فاستعظموا أن يبايعوا أبا بكر رضى الله عنه بعـــد رسول الله ، فاعتزلوا بيعته وتخلفوا عنها .. لقد أرادوا أن تكون الخلافة فى بيت النبوة دون غيره .. فذهبوا إلى على بعد بيعة السقيفة ، وكان عنده عثمان ، فقالوا:

ـ أرضيتم يابنى عبد مناف أن يلى الأمر عليكم غيركم ؟؟ إنكم لطوال الشجر ، طيبو الثمر ، ونحن نتبع لكم . .

وبلغ أبا بكر النبأ ، فابتسم ابتسام الواثق بنفسه ، وأدرك أن الإخوة الأربعة وإن كانوا يعلمون حقه وفضله وسابقته ، إلا أنهم

يظنون أن عليا كرم الله وجهه أولى بالأمر منـــه ، لا لقرابته من رسول الله فحسب ، وإنما لأنه أشد أصحاب رسول الله بأسا على أعداء الله . . فتركهم رضى الله عنه لشأنهم دون إرغام على البيعة ، وإن كان ذلك قد أغضب الفاروق عمر بن الخطاب ، فوجد عليهم فى نفسه . .

وبايع بنو هاشم أبا بكر بعد ثلاثة أشهر ، تكلل مـــن خلالها السعى إلى الوفاق بالنجاح ، فالتأمت وحدة المسلمين التئاما . . ثم بايع على كرم الله وجهه على ملأ الناس فى المسجد . . وهو يقـــول لأبى بكر :

ـ والله لا نقيلك ولا نستقيلك أبدا . . قـــدمك رسول الله لإصلاح ديننا ، فمن الذى يؤخرك لتوجيه دنيانا ؟ ؟

وبقى أبناء سيد بنى عبدشمس وحدهم دون الدخول فيما دخل فيه الناس . . ولكن أبا بكر الذى يعلم ما كان من حب رسول الله لهم ، وتقديره لحقهم ، أبى أن يرغمهم على بيعته . . بل أبى إلا أن يصلهم ويزورهم فى ديارهم بنفسه ، حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا . .

ودخل الصديق على خالد بن سعيد ذات مرة ليعوده ، وكان حب أبى بكر قد تمكن من قلب خالد فقال مداعبا :

ـ أو تحب أن أبايعك ؟ ؟

وأشرق وجه الصديق ، وقال :

ـ بل أحب أن تدخل فى صلح ما دخل فيه المسلمون . .

فقال خالد :

ـ موعدك العشية أبايعك إن شاء الله . .

وفى العشية ، كان أبو بكر على المنبر ، حين دخل خالد المسجد فبايعه على ملأ الناس . . ثم بايع إخوته جميعا . .

(٦)

انتشرت حركة الردة بين القبائل على أثر صعود رسول الله ﷺ . وارتفعت ألوية العصيان تعلن الحرب على أهل التوحيد فى كل مكان . . وما لبث المرتدون أن جمعوا كيدهم وجموعهم للقضاء على المسلمين ، بعد أن طردوا عمال أبى بكر وجباته من مختلف الأمصار . .

وكانت الطامة الكبرى . . فقد تقلص ظل الإسلام ، حتى انتهى إلى حدود المدينة ومكة والطائف وعبد القيس . . وكاد يزول كله عن أرض الجزيرة تحت ضغط الكفر الشديد . .

ومن خلال تلك المحنة ، بلغ الخوف أقصاه فى أعماق صحابة الرسول ﷺ على مصير الإسلام قبل غيرهم . . حتى لقد تقدمهم عمر بن الخطاب نفسه إلى أبى بكر ، وقال :

ـ ياخليفة رسول الله ، تألف الناس وارفق بهم ، فإنهم بمنزلة الوحش الكاسر . ! !

عند ذلك . . فاجأهم أبو بكر بما لم يكن فى حسبانهم أبدا . . لقد انتفض رضى الله عنه انتفاض المحموم ، وقبض على لحية الفاروق قبضة كادت أن تغشيه . . وقال :

ـ رجوت نصرك وجئتنى يخذلانك . . أجبارا فى الجاهلية خوارا فى الإسلام ؟ بماذا عساى أن أتألفهم ؟؟ بشعر مفتعل ؟؟ أو بسحر مفترى ؟ هيهات هيهات !! مضى النبى ﷺ وانقطع الوحى . . والله لأجاهدنهم ما استمسك السيف فى يدى ، وإن منعونى عقالا . . والله لو لم أجد أحدا أقاتلهم به لقاتلتهم وحدى ، حتى يحكم الله بينى وبينهم وهو خير الحاكمين . . والله لو خالفتنى شمالى لقطعتها بيمينى . .

وتغلغل الأمل فى نفوس أصحاب رسول الله ﷺ . . وقد طغت عليهم روح أبى بكر ، فانقلب غمهم فرحا . . كأنهم قد خلقوا من جديد . .

وانتظمت صفوف المسلمين فى جيوش الإسلام تحت راية أبى بكر ، ألوية ألوية ، ولم يتخلف عن الخروج إلا ضعيف أو مريض . .

وخرج أبناء سيد بنى عبد شمس يتقدمون الصفوف ، ليعلوا كلمة الله ، وليشهدوا رسوله وهو فى الملأ الأعلى ، على أنهم بعهده قائمون حتى يلقوه . .

وفى ميدان اليمامة اشتد البأس وحمى الوطيس ، وانهزم المسلمون أول الأمر أمام ضغط الأعداء وقوتهم . . ثم ما لبثوا أن صمدوا وشدوا ، حتى انقلب ميزان المعركة ، وسارت ريح النصر فى ركابهم إلى الفتح المبين . .

وعمد المسلمون إلى شهدائهم يجمعونهم فى الميدان ، وكم كانت فجيعتهم عند ما رأوا عبد الله بن سعيد بن العاص ، فى مقدمة

الشهداء . . وقد احتوشته الرماح من كل جانب ، ورأوا فى صورته اليأس فى كيد المرتدين ، كما رأوا فى وجهه الرضى بمقعد صدق عند مليك مقتدر .

وهكذا سطر أبناء سيد بنى عبد شمس الخمسة ، الصفحة الثانية فى سجل الفداء . .

• • •

وانقشع عن أرض الإســـلام ظلام الفتنة السوداء ليبزغ فى الوجود نور فجر جديد ، يخترق شعاعه حدود الجزيرة ، متجها إلى أرض كسرى وقيصر ، ليمحو عن أرض الله غيوم الشرك والكفران ، وليقشع عن سمائها سحب البغى والفساد . . فما كاد خليفة رسول الله يقضى على حركة الردة بين القبائل ، حتى نادى فى جند الله باقتحام فارس والروم فى يوم واحد . . فتهيأ المسلمون فى جيشين هائلين ، امتثالا لأمر الصديق . .

ونظر رضى الله عنه فيمن يوليه القيادة على جيش الشام الرهيب ، وأخذ ينزع كنانته ليرى أصلبهـــا معدنا ، وأشدها عودا . . حتى اهتدى إلى خالد بن سعيد ، أكبر أبناء سيد بنى عبد شمس ، فاختاره . . إن أبا بكر ليذكر امتناع خالد عن بيعته من قبل ، حتى لقد كان آخر من بايع ، ولكنه يدرك تمام الإدراك أنه ما تخلف إلا لحبه لآل البيت . . فعقد له اللواء وحمله بنفسه إلى بيته . !!

وثار الفاروق عمر بن الخطاب ، ولم يستطع ضبط أعصابه حين

علم بالأمر . . إنه لا يزال يجد على خالد فى نفسه أشد الموجدة منذ موقفه من البيعة . . ذلك الموقف الذى كان يخشى منه بعث الفرقة بين صفوف المؤمنين ، فمالبث أن أسرع إلى أبى بكر ، ليثنيه عن عزمه ، وقال :

ـ يا خليفة رسول الله ، تولى خالدا وهو القائل ما قال ! ؟

وصمت أبو بكر حائرا ، ولكنه آثر فى النهاية رضاء عمر ، وإن كان يعلم أن خالدا العظيم لا يتطلع إلى جاه أو زعامة ، بعد أن تنازل عن إمارته على اليمن حين علم بصعود رسول الله ﷺ . . بل إن الصديق ليذكر إلحاحه عليه للعـــودة حينذاك ، فما كان منه إلا الإصرار الشديد حيث قال :

ـ والله لا أعمل لأحد بعد رسول الله ﷺ أبدا . .

ومن ثم أرسل الخليفة أبا أروى الدوسى إلى خالد ، فقال له :

ـ إن خليفة رسول الله ﷺ يقول لك : « أرددعلينا لواءنا » . .

هنا لك أسرع خالد إلى حجرته وأخرج اللواء ، ودفعه إلى أبى أروى وهو يبتسم وقال :

ـ والله ما سرتنا ولا يتكم ، ولا ساءنا عزلكم ! !

ثم صمت قليلا وكأنه يناجى أبا بكر فى سره ، وقال :

ـ إن الملـــيم لغيرك !

وما أن وصل أبو أروى باللواء إلى أبى بكر ، وذكر له ما قال خالد ، حتى أخذته رضى الله عنه عبرة حانية . . فأسرع إلى ابن سيد بنى عبد شمس . . وأخذ يزف إليه حبـــه ورضاه ، وجعل يعتذر

إليه عما كان من أمر ، ويرجوه ألا يذكر عمرا بما يكره . .

وتأهب الجيش الرهيب ، وقد قسمه الخليفة إلى ثلاثة ألوية، على أحدهما يزيد بن أبي سفيان ، وعلى الثانى شرحبيل بن حسنة ، وعلى الثالث عمرو بن العاص . .

وصحب الصديق خالدا إلى ساحة الحشد ، ووقف معه بين القواد الثلاثة .. وقال له :

ـ أى الأمراء أحب إليك ؟

وكسى الجلال وجه خالد ، وقد نظر إليه القواد وهو يقول لأبى بكر :

ـ ابن عمى عمرو بن العاص أحب إلى فى قرابته . . وهذا شرحبيل بن حسنة أحب إلى فى دينى . . فإن هذا أخى فى دينى على عهد رسول الله ﷺ ، وناصرى على ابن عمى ! .

وخشع الجميع أمام صوت الإيمان ، وقد انبعث من قلب خالد .. وأخذت العبرات تتساقط من عين الصديق تأثرا وحنانا وحبا .. وما لبث أن التفت إلى شرحبيل ، وقال :

ـ انظر خالد بن سعيد ، فاعرف له من الحق عليك، مثل ما كنت تحب أن يعرفه لك من الحق لو خرج واليا عليك . . وقد عرفت مكانه من الإسلام ، وأن رسول الله ﷺ توفى وهو له وال . . وقد كنت وليته ثم رأيت عزله ، وعسى أن يكون ذلك خيرا فى دينه . . ما أغبط أحدا بالإمارة وقد خيرته فى أمراء الأجناد

فاختارك على غيرك ، وعلى ابن عمه ! ! فإذا نزل بك أمر تحتاج فيه إلى رأى التقى الصالح ، فليكن أول من تبدأ به أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل ، وليك خالد بن سعيد ثالثا . . فإنك واجد عندهم نصحا وخيرا . . وإياك واستبداد الرأى عنهم ، أو تطـــوى عنهم بعض الخبر . .

ودوى نفير الزحف ، فسارت جيوش الشام ، حيث سار خالد فى تواضعه جنديا بسيطا تحت لواء شرحبيل . . بينما سار أخواه إبان وعمرو ، وتحت لواء عمرو بن العاص .

وفى مرج الأصفر ، التحم جيش شرحبيل بن حسنة بـــكتل العدو المتراصة . . وحمى الوطيس بين أهل التوحيد وعبد الطاغوت واشتد البأس بين المسلمين فى قلتهم ، والمشركين فى كثرتهم وعدتهم . . وسيطرت روح الصديق على سماء المعركة ، فأذاق جنده أعداء الله ألوانا من العذاب والتنكيل . . وتألق فى سماء المعركة نجم خالد وهو يفرى فى الأعداء فريا ، ويطوح برءوسهم يمينا وشمالا . . حتى إذا مانعم المسلمون بالنصر المبين ، كانت روح خالد ترفرف فى سماء المعركة بأجنحة الرضى بين أرواح الشهداء والصالحين . .

وهكذا سطر أبناء سيد بنى عبد شمس الخمسة ، الصفحة الثالثة فى سجل الفداء .

* * *

وفى أجنادين . . التقى جيش عمرو بن العاص بقوات الروم فى

خيلائها وفخرها ، وكان الخطر الأعظم على مصير القلة المؤمنة ، وقد أحاطتها الكثرة الغاشمة من كل جانب . . والتحم الفريقان المتباينان، وسالت الدماء على أرض المعركة أنهارا . . وسيطرت روح الصديق على سماء المعركة مرة أخرى ، وصدق المسلمون الحملة ، فتطـــاير أعداؤهم تطاير ربات الحجال . ! !

وانجلت المعركة الرهيبة عن أعظم نصر صـــادفه المسلمون فى أرض قيصر . . وقد سطر أبنـــاء سيد بنى عبد شمس من خلالها الصفحة الرابعة والخامسة فى سجل الفداء .

* * *

وهتف من سماء الخلود هاتف ملائكى ، استقر صداه بين جدران الدار الخاوية ـ دار سيد بنى عبدشمس ـ بظاهر مكة . . وظل يناجى طيف أولئك الخمسة الآيبين إلى ربهم ، وقد خلفوا وراءهم ذكريات مجد عريض أعرضوا عنه ، وذكريات بلاء كريم أقبلوا عليه . . ابتغاء مرضاة الله ورسوله . . وجنة عرضها السموات والأرض . .

وارتفع الصوت قليلا ، ليدوى فى دار الذكريات بنغمات الخلود . .

« ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون * فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ، ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .